

أجل تفكيرك يصفو تفكيرك ويحسن تدبيرك

بسم الله الرحمن الرحيم (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) (الإسراء: 11)

في زحمة الحياة اليومية، لا تُتعبنا المواقف بقدر ما تُتعبنا تفسيراتنا لها. الكلمة قد تُقال وتمضي، والموقف قد يحدث وينتهي، لكن الذي يبقى ويؤلم ويُسْتنزف هو ذلك المعنى الذي نصنعه نحن داخلنا، ذلك التفسير السريع الذي لا ينتظر، ولا يتثبت، ولا يمنح نفسه فرصة للهدوء.

كثيراً ما نتصور أن الألم جاءنا من الخارج، من كلمة قاسية، أو تصرف جارح، أو موقف مفاجئ، لكن الحقيقة الأعمق أن ما أنهكنا لم يكن الحدث ذاته، بل القراءة التي أسقطناها عليه، والانفعال الذي ضخمناه، والتفسير الذي استعجلناه.

ولهذا، حين وصف الله الإنسان بالعجلة، لم يكن وصفاً عابراً، بل إشارة إلى أصل الخلل الذي يتسلل إلى قراراته ومشاعره وتدبيره. فالعجلة ليست مجرد سرعة، بل حالة من التسرع في الحكم، والقفز إلى النتائج، وبناء المواقف قبل اكتمال الصورة.

في العجلة الندامة إلا في فعل الخير تحتاج إلى توكل واستشارة من يخاف الله عز وجل، وأما في غيره فتحتاج إلى وعي وثبت. فما من نهْيٍ إلهي إلا وفيه حفظٌ للإنسان من مفسدة، سواء أدركها أم غابت عنه. والعجلة من تلك النواهي التي تفتح أبواب الأزمات، وتزرع الاضطراب في النفس، وتربك مسار الحياة.

وقد أشارت الروايات إلى خطورة هذا الخلق، حتى ورد عن رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله):

"إنما أهلك الناس العجلة، ولو أن الناس تثبّتوا لم يهلك أحد".

لأن العجلة لا تمنحك الحقيقة، بل تعطيك نسخة مشوهة منها، نسخة مشبعة بالخوف، أو سوء الظن، أو التجارب السابقة، أو التوتر الداخلي.

ومن هنا، تظهر لنا مهارة بسيطة في ظاهرها،

ولكن عظيمة في أثرها: وهي قيمة تأجيل التفسير حتى تهدأ نفسك.

أَنْ لا تفسر كل شيء فوراً. أَنْ لا تعطى لكل كلمة معنىً نهائياً من أول لحظة.

أَنْ لا تُصدر حكماً وأنت في قمة الانفعال.

كأن التأجيل المؤقت، ولو لبرهةٍ قصيرة، يُطفئ فوران ذلك التفسير المستعجل واللاواعي، ويعيد للنفس هدوءها، وللعقل توازنه، وللقلب صفاءه. لحظات قليلة قد تفصل بين ردّة فعل تندم عليها، وبين موقف حكيم تُحمد عليه.

ثم تأتي زاويةٌ يغفل عنها الكثير، وهي أن الكلمات - مهما كانت قاسية، مهما حملت من سبٍّ أو شتم أو تنقيص أو تجريح - تبقى في ذاتها محدودة الأثر، لا تملك القدرة على تحطيمنا كما نطد؛

والذي يمنحها هذا الحجم الهائل من الألم هو نحن حين نفسرها، ونحمّلها معاني تتجاوزها، ونعيشها بكل مشاعرنا دفعةً واحدة؛ فنُعيد ترديدها في داخلنا، ونبني عليها تصورات، ونربطها بذواتنا وكرامتنا وذكرياتنا، حتى تتحول من مجرد كلمة عابرة إلى عبءٍ ثقيل يتعبنا جسدياً وروحياً وذهنياً وعقلياً.

إن الكلمة لا تملك أن تجرحك بهذا العمق إلا إذا شحنتها بمشاعرك الحساسة. ولا تستطيع أن تسكن داخلك إلا إذا فتحت لها أبواب التفسير.

وهنا تكمن الحكمة: ليس المطلوب أن نمنع الناس من الخطأ، فهذا خارج قدرتنا، بل أن نمنع التفسير المستعجل من السيطرة علينا، فهذا داخل دائرتنا.

إنك حين تؤجّل تفسيرك، فأنت لا تهرب من الواقع، بل تعطيه حجمه الحقيقي.

وحين تهدأ قبل أن تحكم، فأنت لا تضعف، بل تملك نفسك.

وحين تختار أن لا تُضخّم الكلمة، فأنت تحمي قلبك من أن يُستنزف بلا داعٍ.

أجل تفسيرك:

لأن أول تفسير ليس دائماً أصح تفسير.

أجل تفسيرك:

لأن الهدوء يكشف ما يخفيه الانفعال.

أجل تفسيرك:

فإن صفاء التفكير بداية حسن التدبير،

ومن ملك تفسيره ملك قراره،

ومن ملك قراره استقامت حياته.

والحمد لله رب العالمين.